العودة

اضطروا خاضعين لتلبية رغبتها ؛ بعد إلحاحها الطويل الذي لم يتوقف لحظة واحدة ، منذ إفاقتها ..
تركب (عزة) - ابنة الحادية عشرة من ربيعها – عربة الإسعاف ، انطلقت العربة ، راحت عيناها تتحركان تارة ناحية اليمين ، وتارة أخرى ناحية اليسار ، أخرستها المفاجأة للحظات ؛ من هول ما تراه من هدم ودمار ، قد
أصابا مدينتها (غزة) في مقتل من جراء قصف العدوان
المتواصل ليل نهار .
ظلت (عزة) تحتضن البيوت بعينيها اللتين راحتا تذرفان
الدموع ، وهى تتمتم بكلمات غير مفهومة ..
(الأمل .. الصبر .. الصمود ..)
- هنا ..
قالتها (عزة) فتوقفت العربة على إثرها ..
نزلت (عزة) محمولة بين أيديهم ، وقبل أن يدلفوا داخل بيتها المتهدم ، طالبتهم في كبرياء وشموخ أن ينزلوها أرضاً ، لم يصدقوا ما يسمعونه ، ومن ثم راحوا يتبادلون فيما بينهم نظرات التعجب ..
- كيف ..؟!
قالها واحد من بينهم ..
ردت في صلابة :

- أرجوك ..
قال ثان :
- جرحك لم يندمل بعد ..
ردت في شموخ :
- أرجوك ..
للمرة الثانية ينصاعون لأمرها ..
أنزلوها في هدوء وحذر شديدين ..
راحت تخطو أولى خطواتها زاحفة على يديها ، وما تبقى من ساقيها اللتين بترتا من جراء قصف بيتها ..
في صلابة وتماسك .. راحت أصابعها تزيل من طريقها قوالب الطوب المتكسر ، التي تعوق سير تقدمها ..
رجال الإسعاف يسيرون خلفها ، وهم يحدقون فيها في ذهول ، دون أن يتفوه أحدهم بكلمة واحدة ..
فجأة ..
توقف سير زحفها ..
راحت عيناها تتحركان حركات بطيئة متثاقلة ، تجوبان المكان ..
رائحة الموت البارد ما زالت تفوح بشدة ..
صوت الطائرات المحلقة في الهواء راح يدخل آذانهم قوياً
كان وقع المفاجأة عليهم ثقيلاً ثقل الحجر..
حروف (الخوف) الخمسة جلست متربعة على وجوههم
داعبت (عزة) ذكريات جميلة بريئة عذبة ..
لملمت نفسها المبعثرة وعواطفها المنصهرة ، وراحت
تقول ، وعيناها تلمعان ببريق حزين :

- هنا كان أخي يلعب بالكرة ..
هنا كانت أمي تعد الطعام ..
هنا كانت أختي تحيك ثيابها ..
هنا كان أبى يكمل كتابة قصيدته ..
هنا كان .....
فجأة ..
خرجت (قطتها) عليها مسرعة ، وراحت ترتمي في حضنها بحثاً عن الأمان المفقود ، همست (عزة) في هدوء مغلف بالحزن :
- كلهم ذهبوا وبقيت قطتي ..
صوت الطائرات راح يقترب محلقاً فوق حطام البيت ، ترمومتر خوف – رجال الإسعاف – ارتفع فجأة حتى وصل إلى منتهاه ، قال أحدهم في توجس :
- هيا بنا ، غارات الطائرات الإسرائيلية عادت من جديد تحلق فوق سماء غزة ..
ردت (عزة) في حدة :
- لا .. لن أترك نبتتي ، لا لن أترك بيتي ..
قال ثان :
- هيا لتعودي إلى المستشفي ولتكملي علاجك ..
تبسمت في وجهه ثم قالت :
- هنا دوائي .. هنا شفائي .. هنا نجاتي ..
قال ثالثهم في خوف :
- لم يعد لكِ أحد ..
- ولكن أرواحهم ترفرف من حولي ، لتحميني ..

قال رابعهم :
- هيا وسوف تعودين مع المهجرين ، عند وقف إطلاق النيران ، و .....
قاطعته في حدة :
- ومن يطفئ نيراني المشتعلة بداخلي ..؟!
عاد الأول يصرخ في وجهها :
سوف تموتين ..!!
رمته بنظرة ساخرة ، ثم راحت تقول :
- كنت كزهرة صبار تعيش بلا ماء ..
صمتت برهة ، وراحت عيناها تحتضنان المكان ، ثم أردفت قائلة في حنو :
- والآن تكفيني قطرات الندى ..
صوت القذائف راح يدوى خارج البيت ..
نظر بعضهم إلى بعض في يأس ..
لقد باءت كل محاولاتهم بالفشل ..
تركوها وعنادها وحيدين داخل حطام البيت ، وخرجوا مسرعين ..
قلم أبيها الواقف في صلابة ، راح يناديها ، على الفور أسرعت تلبى النداء ..
مدت أصابعها نحو الورقة النائمة على ظهرها أسفل كرسي أبيها ، دون أن تصاب بأذى ، راحت تقرأ على نفسها عنوان القصيدة التي لم تكتمل :
- " أين أنت يا صلاح الدين ..؟! "
تحرك القلم فوق الورقة ، في محاولة منها لإكمال القصيدة .....